

مراجعة كتاب حنان عشراوي(*)

ناحية السلام

قصة حنان عشراوي هي القصة الفلسطينية بامتياز، بآلامها وآمالها. هذه القصة، المكتوبة بواقعية وحرارة وصدق، هدفها الأول التأثير في الرأي العام الغربي، خصوصاً الأميركي. تعبر حنان عشراوي عن وجهة النظر الفلسطينية لا من موقع الاختصاص في السياسة والديبلوماسية ولا من موقع القرار، بل من موقع واقع الكاتبة: بنت البلد التي عاشت الاحتلال وخبرت مآسيه وتعاطت مباشرة مع إسرائيل، مجتمعاً ونظماً سياسياً. كما أن عشراوي عرفت الغرب عن كثب من خلال الثقافة وخبرة العيش، ودخلت معترك السياسة في مرحلة مفصلية من النزاع العربي - الإسرائيلي. الكتاب بمضمونه ونفسه انعكاس لهذا التنوع المعرفي والفكري، تقدمه عشراوي بأسلوب مميز في سلاسته، ممتع في وصفه للأشخاص والمكان.

● عشراوي والمخاض الفلسطيني

الكتاب مزيج من سيرة ذاتية لامرأة فلسطينية عاشت في الأراضي المحتلة، وقراءة نقدية لأحداث سياسية ساهمت عشراوي بالتأثير في بعض جوانبها خلال الفترة الممتدة من الانتفاضة في أواخر الثمانينات إلى مرحلة ما بعد اتفاق أوسلو في ١٩٩٣. والكتاب غني بتفاصيل الحياة اليومية

THIS SIDE OF PEACE (*)

(New york: Simon and Schuster, 1996) صفحة ٣١٨

فريد الخازن

للفلسطينيين تحت الاحتلال، وللأوضاع التي رافقت الانتفاضة والتغيرات التي أحدثتها داخل المجتمع الفلسطيني. كما تتطرق الكاتبة إلى المفاوضات الأميركية الفلسطينية والفلسطينية - الإسرائيلية في واشنطن.

حنان ميخائيل، المولودة في رام الله من أب فلسطيني وأم لبنانية، درست الأدب الإنكليزي في الجامعة الأميركية في بيروت، حيث نالت شهادة الماجستير. ومن ثم حصلت على منحة لمتابعة دراستها العالية في الولايات المتحدة ونالت شهادة الدكتوراه من جامعة فرجينيا. خلال دراستها الجامعية، وفيما بعد قبل انخراطها في العمل السياسي المباشر، كانت عشراوي ناشطة في الحركات الطلابية وفي الجمعيات الأهلية في فلسطين. عادت بعدها إلى فلسطين والتحقّت بجامعة بيرزيت حيث مارست التدريس والمسؤوليات الإدارية. إثر عودتها من الولايات المتحدة تزوجت إميل عشراوي ورزقت بنتين. في الكتاب تتناول عشراوي نشأتها في أيام الطفولة والمراهقة وحياتها العائلية وفيما بعد مراحل دراستها الجامعية. وتتناول أيضاً بشيء من التفصيل حياتها كأُم وكزوجة وهي في موقع مسؤولية سياسية يحتم عليها السفر الدائم والتأقلم هي وعائلتها مع حال تاهب دائمة للتعامل مع أي طارئ.

شكلت الانتفاضة الحدث الفاصل في مسار القضية الفلسطينية في السنوات الأخيرة وفي حياة فلسطينيي الداخل، ومنهم حنان عشراوي الأستاذة الجامعية المعروفة في الوسط الاجتماعي. فبالإضافة إلى حدث الانتفاضة الذي أعاد وضع النزاع العربي الإسرائيلي على الخارطة السياسية، خصوصاً في شقه الفلسطيني بعد تراجع استراتيجي منذ ١٩٨٢، كانت الانتفاضة حدثاً إعلامياً عالمياً ساهم في إيصال القضية الفلسطينية إلى عقر دار النفوذ الإسرائيلي الإعلامي الأهم في الولايات المتحدة. من هذا الباب بالذات دخلت عشراوي عالم الإعلام، ومن بابه الواسع. ظهورها الإعلامي الأول كان في ١٩٨٨ في حلقة نقاش مفتوح حول الانتفاضة ضمن برنامج Night line الذي تبثه شبكة ABC News، الأميركية وهذا البرنامج، الذي نقل مباشرة من القدس، هو من أكثر البرامج السياسية نجاحاً وتأثيراً في الرأي العام الأميركي. وكرت السبحة. حنان عشراوي، التي كانت الأكثر إقناعاً والأكثر تألقاً في ردودها بين المتحاورين من إسرائيليين وفلسطينيين في حلقة الحوار التلفزيوني، إنتقلت فجأة من منبر الجامعة المحلية إلى منبر دولي. هكذا أصبحت الناطقة غير الرسمية باسم فلسطينيي الأراضي المحتلة والمحاورة الفلسطينية الأكثر شهرة والأكثر شعبية في وسائل الإعلام الغربية.

● الإطلاة الإعلامية المتميزة

تميّزت حنان عشراوي ليس فقط بإتقانها اللغة الإنكليزية وبطلاقتها في التعبير بل أيضاً في إتقانها أساليب التعامل مع وسائل الإعلام الغربي وفي إلمامها بطرق الحوار التي يفهمها الرأي العام الغربي ويتعاطف معها، خلافاً للكثير من السياسيين الفلسطينيين والعرب. ميزة أخرى رافقت إطلاة عشراوي الإعلامية وأعطتها احتراماً وتعاطفاً في أوساط الرأي العام الغربي: كونها امرأة مثقفة ذات شخصية قوية وحضور لافت في مجتمع ذكوري، وكونها تدافع عن قضية ارتبطت صورة أهلها في وسائل الإعلام العالمي بالعنف والقتل. لعل إنجاز عشراوي الأهم، ككاتبة وكناشطة في السياسة والإعلام، أنها ساهمت في إبراز صورة جديدة عن الشعب الفلسطيني سمّتها الحوار والانفتاح بهدف تحقيق السلام. هذه «الإنفاضة» الإعلامية وصلت إلى الذروة مع تعيين عشراوي ناطقة رسمية باسم الوفد الفلسطيني القادم من الأراضي المحتلة للمشاركة في مؤتمر مدريد في ١٩٩١، ومن ثم في محادثات واشنطن التي استمرت حتى الإعلان عن إتفاق أوسلو في صيف ١٩٩٣.

دور حنان عشراوي الإعلامية هو فقط الواجبة. مساهمتها الأساس، والتي تبرزها في الكتاب، تمثلت في دورها في المفاوضات، المباشرة وغير المباشرة، التي كانت مولجة القيام بها بين القيادة الفلسطينية في تونس، أصحاب القرار الفاصل في كافة الأمور المتداولة، والمسؤولين الأميركيين. الكتاب يتضمّن وصفاً مفصلاً لبعض مضامين المفاوضات ولطريقة عمل المسؤولين الأميركيين والفلسطينيين المشاركين في العملية التفاوضية، بدءاً بوزير الخارجية الأميركي جيمس بايكر (في عهد بوش) وورن كريستوفر (في عهد كلينتون)، وصولاً إلى الدكتور حيدر عبد الشافي وفيصل الحسيني وأبو مازن ونبيل شعث وسري نسييه وصائب عريقات وسواهم من الفلسطينيين الناشطين في تلك المرحلة. تقول عشراوي فقط ما يجب قوله، فلا تفشي سرّاً ولا تبوح بأكثر مما يهم القارئ العادي. وفي وصفها للناس، في عملهم وحساباتهم وتطلعاتهم، منحى أدبي ممتع، نقدي وساخر.

● إختلاف الأولويات بين قيادات الخارج والداخل

يبرز بوضوح من خلال السرد والتحليل الهوة الفاصلة بين أولويات فلسطيني الداخل وهمومهم وفلسطيني الخارج، أي منظمة التحرير الفلسطينية بقيادة ياسر عرفات. قيادات الداخل تشدّد على أولويات إيقاف بناء المستعمرات وعلى الاحتفاظ

بالقدس ودعم حقوق الإنسان، بينما ياسر عرفات يشدد على الاعتراف بمنظمة التحرير أولاً وصولاً إلى الاعتراف به كمثل وحيد للشعب الفلسطيني في الداخل والخارج. هدف عرفات، قبل المفاوضات وبعدها، الوصول إلى واشنطن. والطريق الأقرب إلى واشنطن تمر حكماً عبر إسرائيل. هذا الاختلاف كان في أساس اتفاق أوسلو الذي توصل إليه الطرفان، دون معرفة الوفد الفلسطيني في واشنطن، كما تقول عشراوي. موقف عرفات عبّر عنه أبو مازن بقوله لعشراوي «إن أي اتفاق، على رغم شوائبه، مع منظمة التحرير الفلسطينية هو أفضل من اتفاق بين إسرائيل ووفد فلسطيني مفاوض». (ص ٢٦٠).

ومن خلال كلامها المفصل عن مفاوضات واشنطن تكشف عشراوي عن المطبات المتكررة وعن الصعوبات التي واجهت الوفد الفلسطيني في التعامل مع المسؤولين الأميركيين وطبعاً مع الإسرائيليين. يبدو واضحاً أن واشنطن كانت المحرك الأساس للعملية التفاوضية في كافة مراحلها، لا سيما في عهد الرئيس بوش بعد انتهاء حرب الخليج الثانية. إلا أن المسار التفاوضي كان يتحكم به الإسرائيليون. ومع تعثر المفاوضات ووصولها إلى طريق مسدود في ١٩٩٣، تركّز الاهتمام الأميركي على المسار (PROCESS) بدل المضمون (ص. ١٧٣). فلم يعد مهماً ما قد تحرزه المفاوضات بقدر ما كان مهماً أن تستمر المفاوضات وتتواصل اللقاءات عليها تثمر تفاهماً أو اتفاقاً، ولو بعد زمن، وبشروط قد يصعب على الفلسطينيين قبولها.

سقف المفاوضات الأميركي، تقول عشراوي، كان يحدّه الطرف الإسرائيلي. ولقد تغيّر الموقف الأميركي في عهد الرئيس كلينتون وأصبح أكثر تعاطفاً مع الإسرائيليين. وتزامن التغيير مع وصول حزب العمال إلى الحكم بقيادة إسحق رابين الذي أنجز اتفاق أوسلو وشرع في تنفيذه على رغم الصعوبات والانتكاسات التي واجهت الفريقين. وتشير عشراوي إلى الفارق في نمطي التفاوض بين حزب العمال وتكتل الليكود. فالليكود، بحسب عشراوي، خصم أسهل من حزب العمال الذي له علاقات متينة في أميركا والغرب، والذي يتمتع بصورة أفضل من تلك التي لليكود، واجهتها الاعتدال إلا أن مضمونها لا يقل تشدداً عن مواقف الليكود (ص. ٢١٢).

● إنكفاء.. لصالح المجتمع المدني

لا تخفي عشراوي امتعاضها، لا بل خيبتها من اتفاق أوسلو بمضمونه وطريقة تنفيذه، خصوصاً أنه وضع جانباً الكثير من المسائل الحيوية، وفي مقدمها مسألة

المستوطنات والقدس الشرقية. وهي خيبة يشاركها فيها قيادات الداخل، لا سيما فيصل الحسيني وحيدر عبد الشافي، وهما الأكثر تأثراً واحتراماً وحركة في الأراضي المحتلة. وهذا ما دفع حنان عشراوي إلى تحويل اهتماماتها باتجاه العمل المباشر داخل المجتمع المدني وذلك من خلال تأسيسها جمعية تهتم بحقوق الإنسان. نضال عشراوي في مرحلة ما بعد المفاوضات يهدف إلى تدعيم الممارسة الديمقراطية داخل المجتمع وعلى مستوى مؤسسات الحكم.

وتنهي المؤلفة الكتاب بطرح تساؤلات حول العملية السلمية تعكس تشاؤمها من التطورات في مرحلة ما بعد اتفاق أوسلو. مأزق عرفات، تقول عشراوي، يكمن في أنه «بدأ يخسر تأييد الشعب في وقت هو بأمس الحاجة إليه وهو يريد أن يبرهن للولايات المتحدة ولإسرائيل بأنه رجل سلام ورجل موثوق الكلمة». (ص ٢٨٣). ومنذ ذلك الوقت (أي منذ العام ١٩٩٤) والصعوبات تتزايد والمأزق تواجه الجميع، لا سيما بعد وصول نتنياهو إلى الحكم في إسرائيل.

كتاب حنان عشراوي يبرز الرواية الفلسطينية ببعدها الإنساني ومن وجهة نظر فلسطينيي الأرض المحتلة. وفي ذلك توصل عشراوي الرسالة إلى حيث يجب أن تصل - إلى القارئ الغربي الذي قلما تعود قراءة نصوص مكتوبة ببساطة وواقعية ومعبرة عن وقائع حسية يفهمها القارئ العادي. والأهم أن الرواية تعكس تجربة امرأة مناضلة، لا بالسلاح، بل بقوة الكلمة وحجة المنطق.